الشطح في حالة الفناء الصوفي تحليل ونقد

د. عبد القادر موسى حمادي
قسم الفلسفة

الفنــاء

المقدمة:

التصوف علم ذوقي وينقسم إلى اتجاهات ثلاثة تبعاً للتطور الزمني :-

١ـ التصوف السنّي: الذي يتقيد أصحابه فيه بالكتاب والسنة ويربطون احو اله ومقاماته بهما "وهو الجمع بين الظاهر والباطن "وهو مذهب الجنيد رحمه الله تعالى ومذهب القشيري والهروي والغزالي.

٢ــ التصوف شبه الفلسفي :الذي ينزع اصحابه الى الشطحيات وينطلقون من حال الفناء الى إعلان الاتحاد والحلول.

ويسمى بـ"وحدة الشهود "تفرقة له عن " وحدة الوجود " اذ أن هؤلاء في فنائهم وسكرهم الصوفي يشهدون الوجود واحداً لكنهم عند صحوهم ورجوعهم الى البقاء والصحو يرجعون الى حالتهم الانسانية الطبيعية منكرين ما شطحوا فيه .ومن رجال هذه الاتجاه البسطامي والحلاج والشبلي وابن الفارض ومجموعة اصحاب الشطح والفناء .

٣ـ التصوف الفلسفي : وهو التصوف الذي يعمد اصحابه الى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارهم

العقلية مستخدمين في التعبيرعنه مصطلحاً فلسفياً استمدوه من مصادرمتعددة يونانية وفارسية وهندية ومسيحية ،ويمثل هذا المذهب ابن عربي ومن شاكله ويختلف التصوف شبه الفلسفي

"وحدة الشهود "عن التصوف الفلسفي ، إن تصور الوحدة في الشبه الفلسفي مؤقت وفي حالة السكر والفناء وفقدان الوعي وامكان الرجوع الى الحالة الطبيعية .

اما التصوف الفلسفي فهو اعتقاد الوحدة "وحدة الوجود" عن وعي لا عن فقدان وعي .

وبخصوص الفناء الذي هو ظواهر التصوف شبه الفلسفي وكذلك الشطح فأن فيه ثلاثة مذاهب :ـ

١- الفناء في التوحيد : وهو مذهب الجند رحمه الله

٢- الفناء والاتحاد : وهو مذهب البسطامي ابي يزيد

٣- الفناء والحلول: وهو مذهب الحلاج

في المذهب الأول :يحاول الجند ان يغفل في فنائه عن كل شئ الا عن الله.

وفي المذهب الثاني : يقول ابو يزيد : خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها ، فنظرت فاذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لان الكل واحد في عالم التوحيد .

وفي المذهب الثالث : يقول الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

اما الشطح ففي حالة الفناء الصوفي يفقد الصوفي وعيه ويغيب عن الوجود وتفنى ذاته فيتفوه بعبارات غريبة من خلال فنائه في الله سبحانه وتعالى أو من خلال تألهه وشعوره بأنه أصبح متوحداً بالله ، يحصل هذا في

حالة الوجد الشديد أو السكر ، لكن سرعان ما يرجع الى وعيه فينكر ما بدا منه .

الفناء الصوفي

يقول التفنازاني عن معاني الفناء :

أ- فهو يشير احياناً الى معنى اخلاقي حين يعرفونه بأنه (فناء صفة النفس) او (انه سقوط الاوصاف المذمومة).

ب - وقيل ايضاً : ان الفناء يعني الفناء عن الحظوظ الدنيوية .

ج - وهم يعنون ايضاً :فناء الانسان عن ارداته وبقاؤه بأرادة الله .

د - ومن معاني الفناء عندهم ايضاً : الفناء عن رؤية الاغيار،اوبعبارة اخرى عن شهود الخلق ، ويسمى الفناء عن شهود السوى (سوى الله).

هـ ــ وهناك خاصية معينة للفناء الصوفي من الناحية النفسية يذكرها الصوفي وهي ذهاب الحس والوعي ، فلا يعود الصوفي يحس بشئ من جوارحه ولا بنفسه ولا بالعالم الخارجي ، ويمكن القول بلغة علم النفس الحديث : ان حالة الفناء هي الحالة الوجدانية التي يفقد فيها الشخص مؤقتاً شعوره بالأنا .

ويستدل الصوفية على هذه الحال من القرآن الكريم ،قال تعالى (فلما رأينه اكبرنه وقطعن أيديهن)"١"لم يجد النساء عند لقاء يوسف عليه السلام على الوهلة ألم قطع الايدي "٢".

ومن اقوال الصوفية في الفناء :

١ــ يقول الجرجاني : والثاني عدم الاحساس بعالم الملك والملكوت وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق واليه اشار المشايخ بقولهم : سواد الوجه في الدارين ، يعني الفناء في العالمين "٣".

٢ــ وقال ابو يعقوب النهر جوري في الفناء والبقاء : هو فناء رؤية قيام العبد لله وبقاء رؤية قيام الله في الاحكام "٤".

٣ــ فأما اذا كان الغالب عليه المحو فلا علم ولاعقل ولافهم ولااحساس"٥"

٤ـ ان فناء العبد عن وجوده يكون برؤية جلال الحق وكشف عظمته حتى ينسى الدنيا والعقبى في غلبة جلاله وتبدو الاحوال والمقامات حقيرة في نظر همته "٦" .

٥ ـ الفناء ان يفنى عنه الحظوظ فلا يكون له في شئ من ذلك حظ ويسقط عنه التمييز فناء عن الاشياء كلها شغلا بما فني به "٧" .

٦ـ وقال ابو سعيد الخراز : علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والاخرة الا من الله تعالى ،ثم يبدو له بادِ من الله تعالى فيريه حظه من رؤية ذهاب حظه ، ويبقى رؤية ما كان من الله لله ، وينفرد الواحد في احديته فلا يكون لغيره الله مع الله فناء ولا بقاء "٨" .

٧ـ قال ابو القاسم فارس : الفناء حال من لا يشهد صفته بل يشهدها مغمورة بمغيبها "٩".

٨ـ وكنت يوماً في حلقة الشبلي فسمعته يقول : الحق يفني ولا يبقي ، و يبقي بما به يفني ،يفني بما فيه بقاء ، ويبقى بما فيه فناء فاذا افنى عبدا عن اياه او اوصله به، واشرفه على اسراره وبكى وانشد.. "١٠"

٩ـ وسمعت ابراهيم بن المولد يقول : ثمن التصوف فناؤه فيه (في الله) فاذا افنيت فيه بقيت بقاء الابد ، لان من فني عن حسوسه بقي بمشاهدة المطلوب ، وذلك بقاء الابد "١١" .

١٠ـ وفي الحقيقية فناؤه عن صفاته ببقائه عن مراد الله فيه ، وفناء احوال العبد ببقائه في محو الاحوال ، والفناء ذهاب حظوظه مع رؤية فنائه والبقاء غلبة سلطان الحق على سره فيفنيه عنه ويبقيه به "١٢".

١١ـ ثم يدخل في مقام الفناء والبقاء وهو عند (الخراسانيين) ان يفنى عن كل شئ ويفني عن مراداته ويقوم على مراد الحق فيه وعند (العراقيين) فناء حظ العبد عن كل شئ سوى الله ببقاء حظه من الله تعالى ثم تفنى حظوظه ويبقى حظه بعلم فنائه "١٣".

١٢ـ وقال ابن طاهر : هو فناء رؤية العبدعن جميع الأشياء وتبقى مشاهدته بموجدها ومظهرها .

١٣ـ فالولي هو الفاني في الله القائم باسمائه وصفاته وهي عطائية وكسبيه والعطائية ما يحصل بالانجذاب الى الحضرة الرحمانية قبل المجاهدة والكسبية ما يحصل بالانجذاب الى الحضرة الرحمانية قبل المجاهدة ، اليها بعد المجاهدة "١٥" .

١٤ــ وقال الخراز : الفناء هوالتلاشي بالحق، والبقاء هوالحضور مع الحق"١٦".

١٥ــ ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من امر الحق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون الحق سبحانه وتعالى على كون العبد وهو ينقسم الى فناء ظاهر وفناء باطن فاما الظاهر

فهو ان يتجلى الحق سبحانه وتعالى طريق الافعال ويسلب عن العبد اختياره وارادته فلا يرى لنفسه ولالغيره فعلا الا بالحق ثم يأذ في معاملة مع الله تعالى بحسبه حتى سمعت ان بعض من اقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياما لايتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق منه ويقبض الله له من يطعمه ويسقيه كيف شاء واحب وهذا لعمري فناء لانه فني عن نفسه وعن الغير نظرا الى فعل الله تعالى بفناء فعل غيرالله والفناء الباطن :ان يكاشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة عظمة الذات فيستولي على باطنه امر الحق حتى لايبقى له هاجس ولا وسواس "١٧" .

١٦ــ قال عبد القادرالكيلاني :ثم قال لي (الله) ياغوث الاعظم نم عندي لاكنوم العوام ترني فقلت يارب كيف انام عندك ؟ قال :بخمود الجسم عن الذات وخمود النفس عن الشهوات وخمود القلب عن الخطرات وخمود الروح عن اللحظات في فناء ذاتك قي الذات "١٨".

١٧ـ يقول ابن الفارض "١٩" :

فأفنى الهوى ما لم يكن ثم باقياً هذا من صفات بيننا فاضمحلت

فألفيت ما ألقيت عني صادراً اليّ ومنى وارداً بمزيدتي

وشاهدت نفسي بالصفات التي بها تحجبت عني في شهودي وحجتي

واني التي احببتها لا محالة وكانت لها نفسي عليّ محيلتي

فهامت بها من حيث لم تدر وهي في شهودي بنفس الامر غير جهولة

١٨ـ قال الجنيد رحمه الله تعالى : كنت اسمع السري يقول : يبلغ العبد الى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر وكان في قلبي منه شئ حتى بان لي الامر كذلك "٢٠".

١٩ـ وقال ابو سعيد الخراز : اهل الفناء صحتهم (في الفناء) ان يصحبهم البقاء ، واهل البقاء في البقاء صحتهم ان يصحبهم علم الفناء "٢١".

٢٠ـ فالاول فناء عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ،ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق"٢٢".

٢١ـ قال ابراهيم بن شيبان : علم الفناء والبقاء يدور على اخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة "٢٣".

٢٢ـ قال الشيخ ابو نصر السراج الطوسي رحمه الله تعالى : وقد غلطت جماعة من البغداديين في قولهم : انهم عند فنائهم عن اوصافهم دخلوا في وصاف الحق ،وقد اضافوا بجهلهم إلى معنى يؤديهم ذلك الى الحلول أو الى مقالة النصارى في المسيح عليه السلام "٢٤".

٢٣ـ وقال ايضاً : اما القوم الذين غلطوا في فناء البشرية سمعوا كلام المتحققين في الفناء فظنوا انه فناء البشرية فوقعوا في الوسوسة فمنهم من ترك الطعام والشراب وتوهم ان البشرية هي

القالب والجثة البشرية اذا ضعفت زالت بشريتها فيجوزان يكون موصوفا بصفات الالهية .... والذي اشار الى الفناء أراد به فناء رؤية الأعمال والطاعات ببقاء رؤيا العبد لقيام الحق للعبد بذلك "٢٥" .

٢٤ـ واذا قيل فني عن نفسه وعن الخلق فنفسه موجودة والخلق موجودون ولكنه لاعلم له بهم وبه ولااحساس ولاخبر فتكون نفسه موجودة والخلق موجودون ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق اجمعين غير محس بنفسه وبالخالق "٢٦".

٢٥ـ ان الفناء هو الغيبة عن صفات البشر بالحمل المولًه من نعوت الالهية، وهو ان ينفى عنه اوصاف البشرية التي هي الجهل والظلم لقوله تعالى (وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً)"٢٧"٢٨".

٢٦ـ وقيل : ان الفناء اخلاص العبودية والبقاء القيام بآدابها "٢٩".

٢٧ـ وليس من ضرورة الفناء ان يغيب عن إحساسه ،وقد يتفق غيبة الاحساس لبعض الاشخاص وليس من ضرورة الفناء على الاطلاق"٣٠".

٢٨ـ وابو سعيد الخراز هو اول من عبر عن حال الفناء والبقاء "٣١"ويقول الدكتور التفتازاني: اول من تكلم في هذا الفناء ببغداد السري السقطي وهو استاذ الخراز "٣٢" .

النقد

١ـ تتنوع النصوص في التعبير عن الفناء الى :

أـ ان الفناء غياب وانغمار واستهلاك واستغراق وتلاش في الذات الالهية .

ب ـ ان الفناء هو اخلاص وصحة العبودية وليس استغراقاً في الاله .

ج ـ الفناء اتصاف بصفات الله .

د ـ الفناء ليس اتصاف بصفات الله .

ه ـ الفناء فناء صفات البشرية .

وـ الفناء ليس فناء صفات البشرية

زـ الفناء فناء الذات والوجود وفقدان الوعي والاحساس ورؤية كل شئ من الله .

ح ـ ليس من شرط الفناء فقدان الوعي والاحساس .

فالفقرة الاولى (أ) وان عارضتها الفقرة الثانية (ب) فهي وهم متأت عن واقع نفسي يصل فيه الصوفي بعد فقد وعيه وفقدان احساسه بذاته والوجود حوله انه تلاشى في المطلق فيتوهم هذا المطلق هو الله سبحانه وتعالى كما ان الخط الشرعي بعيد عن هذا المنطق لان الصوفية فرقوا بين الحدث والقديم واستحالة الاقتران بينهما سواء بفناء واستغراق او بحلول او اتحاد .

فهل تحدث القرآن او السنة المطهرة عن مثل هذه الحالة وهل قوله تعالى (ليس كمثله شئ) يفسح مجالا للتلاشي بالالوهية وهل دارت كلمة الفناء على ألسنة الصحابة او التابعين .

اما عن الفقرة (ج) وان عارضتها الفقرة (د) فهل هناك من ادرك صفات الله واحاط بها حتى يتيسر له الاتصاف بها، وهل هناك من عرف الله فيقترب منه هذا الاقتراب بالاتصاف بصفاته وكيف يتسنى للانسان ان يتخلى عن صفاته وهي فطرة فطرنا الله عليها (فطرت الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله) ليكتسي بصفات الله فيتأله نعم ممكن التخلق باخلاق الله في ان يتخلى الانسان عن البخل ويتخلق بالكرم وهي صفة الهية، كذلك التخلي عن الجهل والظلم والكفر ويتخلق بالعلم والرحمة والايمان وهي صفات الهية.

اما الفقرة (هـ) وان عارضتها الفقرة(و) فان فناء صفات الانسان كفطرة مستحيلة مادام في قالبه الطيني وبيئته بكل ظواهرها الفيزياوية والكيمياوية والحيوية والاجتماعية فكل حديث عن فناء الصفات الانسانية هو طفح روحي ذوقي اما الفقرة (ز) وان عارضتها الفقرة (ح) فمسألة الفناء عن الذات والوجود وفقد الاحساس مسألة تتوقف على حالة الفرد النفسية وصحته العقلية وشدة أو ضعف احساسه وبمناسبة ورود عبارة (الصحة النفسية)فأن الصوفية ابعدوا العقل ان يكون طريق ادراك واثبتوا الادراك للالهام والذوق بينما الله سبحانه وتعالى قد مجد العقل في آيات كثيرة فكلمة (تعقلون) وردت ٢٤ مرة و(يعقلون) ٢٢مرة ،عدا الصيغ الاخرى والاحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد ان الدين هو العقل والتعقل منها قوله

(صلى الله عليه وسلم) (دين المرء عقله ومن لاعقل له لادين له) " ٣٤"كما ان الشريعة الغراء اسقطت عمن لاعقل له كل التكاليف الشرعية.

٢ــ ولقد قسم ابن تيمية الفناء ثلاثة انواع : نوع للكاملين من الانبياء والاولياء ونوع للقاصدين

من الاولياء الصالحين ،ونوع للمنافقين والملحدين . فأما الاول : فهو الفناء عن ارادة ما سوى الله، بحيث لايحب الا الله ولا ولايعبد الا اياه ولايتوكل الا عليه ولا يطالب من غيره .

واما النوع الثاني : فهو الفناء عن شهود السوى (سوى الله) وهذا يحصل لكثرة من السالكين واذا قوي هذا ضعف المحب حتى يضطرب في تمييزه ،فقد يظن انه هو محبوبه وهذا الموضوع زلت فيه اقدام ،وهذاغلط ،فأن الخالق لايتحد به شئ اصلا لانه (ليس كمثله شئ) .

واما النوع الثالث : مما قد يسمى فناء فهو ان يشهد ان لاموجود الا الله وان وجود الخالق هو وجود المخلوق فلا فرق بين الرب والعبد فهذا فناء اهل الضلال والالحاد الواقعين في الحلول والاتحاد " ٣٥" .

٣ـ قال الذهبي : فان الفناء والبقاء من ترهات الصوفية دخل من بابه كل الحادي وكل زنديق . وأرد قدماء الصوفية بالفناء نسيان المخلوقات وفناء النفس عن التشاغل بالمخلوقات ورؤيتها والاقبال عليها وتعظيم خالقها قال عليه الصلاة والسلام (حبّب اليّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرةعيني في الصلاة)"٣٦" "٣٧".

٤ـ قال ابن الاعرابي : اذا سمعت الرجل يسأل عن الجمع والفناء او يجيب فيهما، فأعلم انه فارغ. قال الذهبي: أي والله دققوا وخاضوا في اسرار عظيمة ما منعهم على دعواهم دليل فيها سوى ظن وخيال "٣٨".

٥ـ أقول : ان هذه الظواهر الصوفية نتجت عن استحضارهم الله في قلوبهم وتخلية اسرارهم من غيره ، وتركيز الذهن فيه وجمع الهمة وحالة الوجد مما ملأ عــقلهم الــباطن بصورة الالوهية فقط.

ومن جهة ثانية فان مجاهداتهم وجوعهم وسهرهم وتفكرهم يجعل عقلهم في حالة ارهاق وخدر مما يحرر العقل الباطن ويطغيه على عقولهم ،

لان العقل الظاهر عقـال للعقل الـباطن لايسمح بخروج فكرة الا اذا ناسبت الحال ، لكنهم اولاً : ألغوا عقولهم كطريق للمعرفة، وثانيا : عقولهم في حالة خدر ولذلك فهم في غيبة عن الوعي .هذه الحالة النفسية تثير فيهم كثيراً من النوازع والمشاعر فيذهلون عن انفسهم ويغفلون عنها فلا عنها فلا يبقى امامهم الا الشعور بالوجود المطلق الواحد ، هذا الواحد هل هو الله ولا وجود لهم ؟ أم هذا الواحد هو الصوفي نفسه لان حقيقة الامر (في الفناء) اصبحت موضوع توحد بواحد .

وامام هذه الحالة يشعر الصوفي انه فني بالله واكتسب صفاته من قدرة واردة وعلم .. لكنها نزعة نفسية واتجاه خاص في المجاهدة له قوانينه .

يقول ابن الفارض "٣٩":

هي النفس ان ألقت هواها تضاعفت قواها واعطت فعلها كل ذرة

ولقد وقف المعنيون بالتصوف امام ظاهرة الفناء وقول بعض الصوفية (انا الحق)(وسبحاني ما اعظم شأني) في شطحهم موقفين :-

فمنهم من قال : هذا تعبير عن لسان الحق .

ومنهم من قال : هذا تعبير عن لسان الصوفي نفسه .

فالموقف الاول :موقف تغطية للصوفية وستر لحالهم .

اما الموقف الثاني : فهو الصحيح ، لان لنا في استشهادهم بقول مجنون ليلى دليل على ذلك.

يقول الغزالي : وحكي ان مجنون ليلى قيل له : ما اسمك ؟ قال : ليلى .

وقيل له يوماً : أو ماتت ليلى ؟ قال في قلبي لم تمت . انا ليلى "٤٠"

فالمجنون رأي ليلى فأرتسمت في نفسه بانطباعها في العقل الباطن ثم تظهر من العقل الباطن على الظاهر فيزين الخيال هذه الصورة بانواع الزينات وتستمر العملية الى ان تصبح ليلى صورة روحية شفافة ويمتلئ بها

عقله الباطن من كثرة ترددها على خاطره فيراها في كل شئ يتناوله احساسه ثم يذهل عن نفسه فلا يخطر بخاطره الا ليلى فيكون هوليلى المتخيلة لا المجسدة.

فالصوفي (والتصوف حب ايضا) يصنع صورة الله التي يتصورها في قلبه تجاه نفسه يشهدها ويراها ويحاورها وتلهمه وتحادثه وتكلمه بعد ان يذهل عن نفسه والوجود من حوله ، فيمتلئ عقله الباطن بالالوهية ولايبقى فيه لغيرها التفات فهو لايرى الا الله ولايفكر الا في الله وبطغيان هذه الحالة صار هو الله كما صار المجنون ليلى ، بل بأستعراضه صفات الله وأسمائه وهو محلق في الوجود المطلق يرى نفسه انه هو العظمة وهو القدرة وهو العلم ... لانه أصبح هو الله وغفل عن ذاته والمسألة وهم نفسي لان كل ما يدور في ذهن الصوفي هو حديث نفسي وحركة مشاعر واحاسيس ذاتية لا علاقة لها بالواقع الموضوعي اللهم الا الالهام الالهي او الملائكي الذي هو من باب التنبية لبعض المؤمنين واسعافهم رحمة بهم على ان الالهام ليس بدائم مستمر كما انه لايعتد به كحجة في التشريح لانه واقعة شخصية .

الشطح

العرض:

١ـ يقول الجرجاني في التعريفات :الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهو من زلات المحققين فأنه دعوى بحق يفصح بها العارف من غير اذن الهي بطريق يشعر بالنباهة .

٢ـ يقول السراج الطوسي : فيقال : معناه عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته "٤١".

٣ـ ان الخضر عليه السلام عبر على الحلاج وهو مصلوب .. ياحلاج كيف اصبحت ؟ قال : لو طارت مني شرارة لاحرقت مالكا وناره "٤٢" .

٤ـ وقال الحلاج لولا ان الله تعالى قال (لاملئن جهنم من الجنة والناس اجمعين)"٤٣" لكنت ابصق في النار حتى تصير ريحانا على اهلها "٤٤".

٥ـ وقال : لو ألقي مما في قلبي ذرة على جبال الارض لذابت واني لو كنت يوم القيامة في النارلاحرقت النار ولو دخلت الجنة لانهدم بنيانها "٤٥".

٦ـ قال ابو يزيد : ضربت خيمتي بازاء العرش "٤٦" .

٧ـ وقال يخاطب الله سبحانه وتعالى (كنت لي مرآة فصرت انا المرآة) "٤٧".

٨ـ وقال: اشرف الحق على اسرار العالم فشاهدها خالية منه غير سري فانه رأى منه ملاء فخاطبني معظما لي بأن قال : كل العالم عبيدي غيرك "٤٨".

٩ـ وقال طاعتك لي يا رب اعظم من طاعتي لك "٤٩" .

١٠ـ وقال : بطشي اشد من بطشه بي "٥٠" .

١١ـ وقال تالله ان لوائي اعظم من لواء محمد صلى الله عليه وسلم لوائي من نور تحته الجان والجن والانس كلهم من النبيين "٥١" .

١٢ـ وقال : لو تراني مرة خير لك من ان ترى ربك الف مرة "٥٢".

١٣ـ وقال : خضت بحرا وقف الانبياء بساحله "٥٣" .

١٤ـ وقرئ عند ابي يزيد يوما (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) "٥٤"

فهاج ثم قال : من كان عنده فلا يحتاج الى ان يحشر لانه جليسه ابدا "٥٥" .

١٥ـ سمعت ابا يزيد يقول :طلقت الدنيا ثلاثا بتة لارجعة فيها فناديته بالاستغاثة .. فقال(ياعزيزي) كن قدرتي واياتي "٥٦" .

١٦ـ سمعت مرة في الغيب يا ابا يزيد كيف ترى فعلي بك ؟ فقلت فعلك بي ، ثم رفعني الى مكنون غيبه فقال (ياعزيزي) كن غيبا في غيبي فقلت (يا عزيزي) انت غيب نفسك في نفسك "٥٧" .

١٧ـ وقال ابو يزيد (اني انا الله لااله الا انا فاعبدني) "٥٨" "٥٩".

١٨ـ وقال : سبحاني ما اعظم شأني "٦٠" .

١٩ـ وقال : رفعني بين يديه وقال لي : يا ابا يزيد ان خلقي يحبون ان يروك فقلت :زيني بوحدانيتك والبسني انانيتك وارفعني الى احديتك حتى اذا رآني خلقك قالوا رأيناك فتكون انت ذاك ولااكون انا هناك "٦١" .

٢٠ـ وقال : اول ما صرت الى وحدانيته فصرت طيرا جسمه من الاحدية وجناحاه من الديمومية فلم ازل اطير في هواء الكيفية عشر سنين حتى صرت الى هواء مثل ذلك مائة الف الف مرة فلم ازل اطير الى ان صرت في ميدان الازلية فرأيت فيها شجرة الاحدية "٦٢".

٢١ـ ويقول : اشرفت على ميدان الليسية (يقصد ليس كمثله شئ) فما زلت اطير فيه عشر سنين حتى صرت من ليس في ليس بليس ثم اشرفت على التضييع وهو ميدان التوحيد فلم ازل اطير بليس في التضييع حتى ضعت في الضياع ضياعا وضعت فضعت عن التضييع بليس في ليس في ضياعة التضييع ثم اشرفت على التوحيد في غيبوبة الخلق عن العارف وغيبوبة العارف عن الخلق "٦٣" .

٢٢ـ ويروى جلال الدين الرومي عن ابي يزيد البسطامي الفارسي المشهور انه كثيراً ما قال في جذبته انه (هو الله) وحين يرجع الى نفسه ويعلم ما نطق به لسانه من الفاظ الكفر يأمر مريديه ان ينخسوه بمداهم ان هو عاد الى ارتكاب ذلك المأثم "٦٤" .

٢٣ـ سمعت ابا عبد الله بن جابان يقول :دخلت على الشلبي رحمه الله في سنة القحط فسلمت عليه فلما قمت على ان اخرج من عنده فكان يقول لي ولمن معي الى ان خرجنا من الدار : مروا انا معكم حيث ما كنتم انتم في رعايتي وكلاءتي "٦٥".

٢٤ـ ان الشلبي اخذ من يد انسان كسرة خبز فاكلها ثم قال ان هذه نفسي تطلب مني كسرة خبز ولو التفت سري الى العرش والكرسي لاحترق "٦٦".

٢٥ـ وربما كان يشطح ويقول : انا الوقت وقتي عزيز ليس في الوقت غيري و انا محق "٦٧".

٢٦ـ وذكر عنه ايضا انه قال في مجلسه : ان لله عبادا لو بزقوا على جنهم لأطفؤها "٦٨" .

٢٧ـ قالت رابعة عن الكعبة لما حجت : ان هذا الصنم المعبود في الارض وانه ما ولجه الله ولا خلا عنه "٦٩".

٢٨ـ وقالت عن النار : يا رب اما كان لك عقوبة ولا ادب غير النار "٧٠".

النـقد

١ــ يكشف النص الاول ان الشطح رعونة وادعاء وزلة قدم دون اذن الهي وفي النص الثاني انه نتيجة فيضان وجد طاغ اما النصوص المتبقية فهي تجاوزات للالوهية والنبوات وادعاءات تتخطى الادب والشرع والعقل وكلها تدور في هذا الفلك.

٢ــ والشطح ليس مقصورا على البسطامي والحلاج و الشلبي ورابعة بل هنالك التستري والنفري والكيلاني والرفاعي والدسوقي والبدوي وغيرهم كثير .

٣ــ انقسم المعنيون بالتصوف الى فريق يبرر الشطح وفريق ينكره فالمبررون صرحوا بما يلي:

قال الجنيد :وكان من كلام ابي زيد رحمه الله لقوة غوره وانتهاء معانيه مغترف من بحر قد انفرد به وجعل ذلك البحر له وحده "٧١".

وقال : ثم اني رأيت الغالية القصوى من حاله حالا قل من يفهمها عنه او يعبر عند ستماعها لانه لا يحتمله الا من عرف معناه وادرك مستقاه ومن لم تكن هذه هيئته عند استماعه فذلك كله مردود "٧٢".

ويقول الغزالي :العارفون بعد الخروج الى سماء الحقيقة ... فسكروا سكراً وقع دونه سلطان عقولهم فقال بعضهم (انا الحق)وقال الاخر(سبحاني ما أعظم شأني)وقال الاخر (مافي الجبة الاالله) وكلام العشاق في حال السكر يطوى و لا يحكى فلما خف سكرهم ردوا الى السلطان العقل الذي هو ميزان الله في ارضه "٧٣".

قيل لابي القاسم الجنيد:ان ابا يزيد يسرف في الكلام فقال :وما بلغكم من اسرافه في كلامه؟ قالوا :سمعناه يقول :سبحاني سبحاني انا ربي الاعلى فقال :الجنيد :ان الرجل مستهلك في شهود الاجلال فنطق بما استهلكه لذهوله عن الحق عن رؤية اياه فلم يشهد الا الحق تعالى فنعته فنطق به ولم يكن من علم ما سواه ولا من التعبير عنه ضنا من الحق به ، ألم تسمعوا مجنون بني عامر لما سئل عن اسم نفسه فقال :ليلى فنطق بنفسه ولم يكن شهود اياه فيه وبلغنا انه قيل له انت من انت ؟ قال :انا من ليلى ومن ليلى انا "٧٤" .

يقول ابن خلدون ..... انهم اهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لايقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب (شرعا) والمجبور معذور فمن علم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا "٧٥".

ويقول ابن تيمية : ان بعض ذوي الاحوال يحصل له حال الفناء القاصر سكروا غيبة عن السوى و السكر وجد بلا تمييز فقد يقول في تلك الحال (سبحاني) او (مافي الجبة الا الله) او نحو ذلك من الكلمات التي تؤثر عن ابي يزيد البسطامي او غيره من الاصحاء وكلمات السكران تطوى ولاتروى ولاتؤدى "٧٦".

وقال عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى : اذا كانت هذه الكلمات الشطحية صادره عن الصوفية في حال الصحو فهو من الشيطان الذي لاحكم له اذ لايحكم الاعلى ما تلفظ به حال الصحو وامل الغيبة فلا يقام عليها حكم "٧٧" .

اما المنكرون فقد قالوا :

يقول ابن الجوزي معلقا على تبرير الجنيد لحال البسطامي السابق في هذه الفقرة (رقم ٣) وهذا من الخرافات "٧٨" .

يقول الغزالي : وينبغي لك ان لا تغتر بشطح و طامات الصوفية لان سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوات النفس وقتل هواها بسيف الرياضة لا بالطامات و الطرهات "٧٩".

ويقول ايضا :آداب الصوفي قلة الاشارة وترك الشطح في العبادة والتمسك بعلم الشريعة "٨٠" ويؤثر الهروي الانصاري مقام السكينة المنبعثة من الرضا عن الله وهي مانعة عن الشطح ولما كانت هذه السكينة لا تنزل في رأي الهروي الاعلى قلب نبي او ولي فانه ينفي بذلك صراحة ان يكون البسطامي او الحلاج موصوفين بالولاية لما اثر عنهم من شطحيات فاحشة "٨١".

يقول التفتازي : كان الجنيد في الحقيقة يجمع بين الشريعة والحقيقية وانه كان من اهل الرسوخ والتمكين (الصحو) لا من ارباب الاحوال والشطح (السكر) "٨٢".

٤ـ اثناء عروج الصوفية بمراجهم الروحي الى الله والفناء يظهر من بعضهم لا كلهم ما يسمى بالشطح وهذه الظاهرة وخاصة بضعاف العقول وشديدي الحساسية والتأثر فيفقدون زمام انفسهم وتصدر عنهم هذه الظواهر على عكس اصحاب التمكين والرسوخ وأقوياء العقل وهي ايضا ظاهرة نفسية لها اسبابها وعللها وهذه الظاهرة ليست اسلامية شرعية فلم تظهر من نبي من الانبياء ولم تظهر على لسان احد من الصحابة او التابعين او أي افرد من اراد الامة الإسلامية المؤمنين بالله ورسوله بل ظهرت من جهة من ادعى الولاية ومجالسة الله ومعاشرته وانها لحالة مرضية يخرج بها الانسان

من التعقل والوعي الى الجنون والرعونة وهذا ما ادى اليه الطريق الصوفي الذي حارب فطرة الله وشذ عنها مع العلم ان ابا يزيد وهو المكثر من الشطح كان اميا والامية تبعد الانسان ان يتقيد بالشرع فينقل الدكتور بدوي : وسمعت الشيخ ابا عبد الله يقول :كان مشايخنا يقولون : ابو يزيد الاكبر ايضا كان اميا وان شك في تمام علمه الظاهر فلا ريب في كمال علمه الباطن "٨٣".

يقول الامام الرفاعي : لفظتان ثلمتان في الدين : القول بالوحدة والشطح المجاوز حد التحدث بالنعمة "٨٤".

الخاتمة

ان حالة الفناء ثمرة احد انواع التصوف والمسمى بالتصوف شبه الفلسفي (وحدة الشهود) فعندما يذهل الصوفي عن نفسه ويفقد وعيه ويغيب عن المحسوس يصل الى الدرجة التي يتوحد فيه الاله والصوفي اذ تفنى ذاته ولا يرى الا توحد الموجودات في واحد وهذا الواحد هل هو الله ؟ ام الصوفي ذاته .

وهذه الحالة سميت بـ(وحدة الشهود) لا وحدة الوجود لان الصوفي هكذا يرى ويشاهد الوجود في سكره لا في صحوه ثم يعود عند صحوه الى ثنائية الخالق والمخلوق وهذه الحالة لها اسبابها النفسية فعندما يلهج الصوفي بذكر الله سنين طويلة ويبعد عن قلبه كل خاطر غير خاطر الله يمتلئ عقله الباطن بالصور الالهية التي تطغى على عقله الظاهر فيشعر بالتأله لانه ليس في دخائل نفسه الا الله ، مثله في ذلك مثل مجنون ليلى الذي ملأت عليه ليلى نفسه واحاسسه ومشاعره فاعتقد انه ليلى فالصوفي عندما يقول (انا الحق) هل هو

تعبير عن الله كما قاله قوم دفاعا عن الشطح الصوفي ؟ ام هو تعبير عن الصوفي نفسه كما حال مجنون ليلى .

ان حالة الفناء هذه حالة نفسية عاطفية غير متزنة وخروج عن الفطرة السليمة اذ هم يعتمدون ان هذه الاحاديث النفسية التي تجول في قلوبهم هي الهامات الهية ووهمهم هذا متأتٍ من عدم اعتدادهم بالادراك العقلي وتوجههم الى الجانب الشعوري العاطفي الذوقي .

لقد حذر كثير من مشايخ الصوفية تجويع المريدين والاكثار من الصيام لان الجوع يؤدي الى جمود الذهن وتلفه مما يؤدي الى هذه الظواهر السلبية .

هذا عدا مجاهداتهم وسهرهم الليالي وخوفهم وتشددهم في العبادات ومهما دافع الصوفية عن حالة الشطح في القول (انا الحق) و(اني انا الله لااله الا انا فاعبدني...) وان الصوفي انما يعبر عن الله في قوله هذا فان الحقيقة ان الصوفي يتحدث عن شعوره هو نفسه لا تعبيراً عن الله لانه فني في الله واصبح الاثنان هو والله واحداً، في حالة تألّه. وفي حالة السكر الصوفي هذا سرعان ما يصحو ويرجع الى حالته منكراً ما صدر منه.

الهوامش

١ـ يوسف ٣٠

٢ـ التفتازاني ـ مدخل الى التصوف ص١٣٣

٣ـ الجرجاني ـ التعريفات

٤ـ القشيري ـ الرسالة ج ١ص ١٩١

٥ـ المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٢

٦ـ الهجويري ـ كشف المحجوب ص٤٨٦

٧ـ الكلاباذي ـ التعرف ص ١٤٧

٨ـ المصدر السابق ص ١٥٠

٩ـ المصدر السابق ص ١٥١

١٠ـ السلمي ـ الطبقات ص ٣٤٦

١١ـ المصدر نفسه ص ٤١١

١٢ـ السلمي ـ مناهج العرفين ضمن كتاب (تسعة كتب في اصول الزهد والتصوف)ص ١٨٠ ١٣ـ السلمي ـ سلوك العرفين ضمن كتاب (تسعة كتب في اصول الزهد والتصوف)ص ٢٠٨

١٤ـ المصدر السابق والصفحة نفسها

١٥ـ الحكيم الترمذي ـ ختم الاولياء ص ٤٩٤

١٦ـ السهروردي-عوارف المعارف(ملحق احياء علوم الدين للغزالي)ص٢٥٠

١٧ـ المصدر السابق والصفحة نفسها

١٨ـ الكيلاني ـ عبد القادر ـ الفيوضات الربانية ص ٧

١٩ـ ابن الفارض ـ الديوان ص ٦١ ـ ٦٢

٢٠ـ القشيري ـ الرسالة ج ١ ص ٢٤٣

٢١ ـ السهروردي- عوراف المعارف (مع احياء علوم الدين للغزالي) ص ٢٥٠

٢٢ـ القشيري ـ الرسالة ص٢٦٣

٢٣ـ المصدر السابق ص٢٠٠

٢٤ـ الطوسي ـ اللمع ص ٢٥٢

٢٥ـ المصدر السابق ص ٥٤٣

٢٦ـ القشيري ـ الرسالة ص ٢٦٢

٢٧ ـ الاحزاب ٧٢

٢٨ـ الكلاباذي ـ التعرف ص ١٥٠

٢٩ـ السلمي ـ سلوك العارفين ـ ضمن كتاب(تسعة كتب في اصول الزهد والتصوف) ص٢٠٨

٣٠ـ السهروردي- عوارف المعارف (مع احياء علوم الدين للغزالي) ص١٥٠

٣١ـ الهجويري ـ كشف المحجوب ص ٤٨٠

٣٢ـ التفتازاني ـ مدخل الى التصوف ص ١٣٤

٣٣ـ الروم ٣٠

٣٤ـ الحديث رواه ابو الشيخ في الثواب وابن النجار عن جابر وهو ضعيف

٣٥ـ ابن تيمية ـ العبودية ص ٨٤

٣٦ـ حديث حسن عن انس رواه احمد في مسنداه والنسائي والحاكم في مستدركه والبيهقي في السنن ـ السيوطي في الجامع الصغير

٣٧ـ العيدة ـ محمد وطارق عبد الحليم ـ الصوفية نشأتها وتطورها ص ٣٣

٣٨ ـ المصدر نفسه ص ٣٥

٣٩ ـ ابن الفارض ـ الديوان ص ١٠٢

٤٠ـ الغزالي- مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ص٤٥

٤١ـ الطوسي ـ اللمع ـ ص ٤٥٣

٤٢ ـ الساعي ـ اخبار الحلاج ص ٢٠

٤٣ـ هود ١١٩

٤٤ـ الساعي ـ اخبار الحلاج ص ٤٨

٤٥ـ المصدر نفسه ص ٢٠

٤٦ـ الطوسي ـ اللمع ص ٤٧٤

٤٧ـ بدوي ـ شطحات الصوفية ص ٢٨ ـ٣٢

٤٨ـ المصدر نفسه ص٢٨ ـ٣٢

٤٩ـ المصدر نفسه ص ٢٨ـ٣٢

٥٠ـ المصدر نفسه ص ٢٨ـ٣٢

٥١ـ بدوي ـ شطحات ص ٣٠ـ ٣٢

٥٢ـ المصدر نفسه ص ٣٠ـ٣٢

٥٣ـ المصدر نفسه ص ٣٠ـ٣٢

٥٤ـ مريم ٨٨

٥٥ـ بدوي ـ شطحات ص ٣٢

٥٦ـ المصدر نفسه ص ١٢٨

٥٧ـ المصدر نفسه ص ١٢٨

٥٨ـ طه ١٤

٥٩ـ نيكلسون ـ في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢٤

٦٠ـ المصدر نفسه ص ٢٤

٦١ـ الطوسي ـ اللمع ص ٤٦١

٦٢ـ نفس المصدر ص ٤٦٤

٦٣ـ نفس المصدر ص ٤٦٨

٦٤ـ نيكلسون ـ الصوفية في الاسلام ص ١٢٦

٦٥ـ الطوسي ـ اللمع ص ٤٧٨

٦٦ـ المصدر نفسه ص ٤٧٩

٦٧ـ المصدر نفسه ٤٨٨

٦٨ـ المصدر نفسه ص ٤٩١

٦٩ـ ابن تيمية ـ مجموعة الرسائل والمسائل ص ٦٢ـ ٨٠

٧٠ـ المناوي ـ عبد الرؤف ـ طبقات الاولياء ورقة ١٠٥

٧١ـ الطوسي ـ اللمع ص ٥٤٩

٧٢ـ المصدر نفسه ص ٤٥٩

٧٣ـ الغزالي ـ مشكاة الانوار ـ مجموعة الجواهر الغوالي ص ١٢٢

٧٤ـ بدري ـ شطحات الصوفية ص ٨٩

٧٥ـ ابن خلدون ـ المقدمة ص ٤٧٤

٧٦ـ ابن تيمية ـ مجموعة الرسائل والمسائل ص ١٦٨

٧٧ـ بدوي ـ شطحات الصوفية ـ ص ١٧ـ١٨

٧٨ـ ابن الجوزي ـ تلبيس ابليس ص ٣٤٤

٧٩ـ الغزالي ـ ايها الولد ص ٦٩

٨٠ـ الغزالي ـ الادب في الدين ـ ضمن مجموعة الجواهر الغوالي ص ٢٦

٨١ـ التفتازاني ـ مدخل الى التصوف الاسلامي ص ١٨١

٨٢ـ المصدر نفسه ص ١٣٨

٨٣ـ بدوي ـ شطحات ص ٧٠

٨٤ـ الانيس عبد السميع محمد ـ زاهد العراق السيد احمد الرفاعي ـ رسالة بالرونيو

المراجع

١ـ اخبار الحلاج ـ الساعي مكتبة الجندي القاهرة ــ بلا

٢ـ الادب في الدين ــ ضمن مجموعة الجواهري الغوالي ــ الغزالي مكتبة الشرق الجديد ـ بغداد ــ ١٩٩٠

٣ــ ايها الولد ــ الغزالي تحقيق صباح محمد علي كاظم ــ مطبعة العاني ــ بغداد ط ١ ١٩٨٨

٤ــ التعرف لمذهب اهل التصوف ــ ابو بكر الكلاباذي ــ تحقيق محمد امين النواوي- مكتبة الكليات الازهرية ــ ط١ ١٩٦٩

٥ــ التعريفات ــ الشريف الجرجاني ــ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ــ مصر ــ ١٩٣٨

٦ــ تلبيس ابليس ــ ابن الجوزي إدارة الطباعة المنيرية ــ دار الكتب العلمية بيروت- بلا

٧ــ الجامع الصغير ــ السيوطي ــ مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني

٨ــ ختم الاولياء ـ الحكيم الترمذي ـ تحقيق عثمان اسماعيل يحيى ـــ المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥

٩ــ ديوان ابن الفارض ــ دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٢

١٠ـ الرسالة القشيرية ــ القشيري ـ تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ــ دار الكتب الحديثة ١٩٧٤

١١ــ زاهد العراق السيد احمد الرفاعي ـ الانيس عبد السميع محمد ــ رسالة بالرونيو

١٢ــ سلوك العارفين ــ ابو عبد الرحمن السلمي ــ ضمن تسعة كتب في اصول الزهد والتصوف

١٣ــ شطحات الصوفية ــ بدوي وكالة المطبوعات ــ الكويت ط ٢ ١٩٧٦

١٤ــ الصوفية في الاسلام - نيكلسون ترجمة وتعليق نور الدين شريبة مكتبة الخانجي ١٩٥١

١٥ــ الصوفية نشأتها وتطورها ـ محمد العيدة وطارق عبد الحليم ــ دار الارقم ـ الكويت ٨٦

١٦ـ طبقات الاولياء ــ عبد الرؤف المناوي

١٧ـ طبقات الصوفية ــ السلمي ــ تحقيق نور الدين شريبة ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٦٩

١٨ــ عوارف المعارف ــالسهروردي (نهاية احياء علوم الدين للغزالي) دارالقلم بيروت ط١

١٩ــ في التصوف الاسلامي وتاريخه ــ نيكلسون ترجمة ابو العلا عفيفي لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة ١٩٥٦

٢٠ـ الفيوضات الربانية ــ عبد القادر الكيلاني ــ ترجمة وترتيب الشيخ نور الدين الحسيني رئيس الطائفة القادرية ــ دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٨

٢١ــ كتاب العبودية ـ ابن تيمية ــ منشورات المكتب الاسلامي ــ دمشق ١٩٦٢

٢٢ـ كشف المحجوب ــ الهجويري ــ دراسة وترجمة وتحقيق د. اسعاد عبد الهادي قنديل دار النهضة العربية للطباعة والنشر ــ بيروت ١٩٨٠

٢٣ـ اللمع ـ ابو نصر السراج الطوسي ــ تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ـ دار الكتب الحديثة ــ مصر ١٩٦٠

٢٤ ــ مجموعة الرسائل والمسائل ــ ابن تيمية ــ طبعة رشيد رضا ــ مطبعة المنار ـ القاهرة ط١ ١٣٤٢ هـ

٢٥ ـ مدخل الى التصوف الاسلامي ـ ابو الوفا الغنيمي التفتازاني ـ دار الثقافة القاهرة ط٢ ـ١٩٧٦

٢٦ ـ مشكاة الانوار ـ مجموعة الجواهر الغوالي ـ الغزالي

٢٧ ـ مقدمة ابن خلدون ـ ابن خلدون مطبعة مصطفى محمد ـ القاهرة ـ بلا

٢٨ ـ مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ـ المنسوب للغزالي ـ مكتبة الجديد ـ بغداد ط١ ١٩٨٧

٢٩ ـ مناهج العارفين ـ ابو عبد الرحمن السلمي ـ ضمن تسعة كتب في اصول الزهد والتصوف